

أدونيس

" لست حيث أنت ، بل حيث لا أنت
لا فى النوم بل فى الأرق "
يسأل نفسه :
من أنت أيها السيد
وأنا لا أنا وأنت لا أنت
أستودعها أسرارى وأتصارع معها
أرى نفسى فيها وأشهر عليها حروبى

عندما بكى أدونيس فى المقهى(*)

ساقيم سياجاً حول البكاء ، وسأمنع نفسى من النظر إلى صورته ، تلك التى تثبت اللحظة العاطفية حتى يمكننى الكتابة عن شىء أكبر من البكاء . . أظنه كان وراء انفجار أدونيس أمام الجمهور المصرى فى المقهى الثقافى داخل معرض الكتاب .

شىء بين الرمد والورد ، بين العداوة والمحبة ، لحظة من قبل أن تضىء القلب ، أضاءت مشهداً ثقافياً خالياً من الإنصاف !

كيف استطاعت ثلاث ليال هى كل زيارة أدونيس للقاهرة أن تفجر كل ذلك الارتباك الحاد . . سؤال بحاجة إلى مراجعة المشهد .

فى اليوم الأول كان على أدونيس أن يواجه موقف شعراء التسعينيات بمصر من مشروعه الحدائى . . كان رأى الشاعر أسامة الديناصورى المنشور فى عدد « أخبار الأدب » المخصص للشعر المصرى : أول من يتظره . . « لا أستطيع قراءة أدونيس نهائياً » .

إنه الموقف المتكرر لدى الأجيال الجديدة من الشعراء ، وائتى لم تعد ترى فى حدائى أدونيس سوى قيمة كلاسيكية . .

فى الصباح التالى كان الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى يواصل هجومه النارى ، على صفحات جريدة الأهرام ، حول تجربة

(*) جريدة أخبار الأدب - القاهرة - ١١ / ٢ / ١٩٩٩ م .

أدونيس، « وتسخير كل القوى والمؤسسات وأجهزة الإعلام والكتب والجامعات بالداخل والخارج لها ». وفي ظهيرة اليوم نفسه في ندوة معرض الكتاب « خمسون عاماً من الشعر الحديث » والتي شارك فيها أدونيس أيضاً . . كان حجازي يفضح زيف الادعاء الذي يجعل من حركة « مجلة شعر » بداية رائدة للشعر الحديث ، هاجم حجازي التجربة الأدونيسية وشكلية الثقافة اللبنانية غير المسموح لها بإحداث تغيير بالمجتمع ، تحدث عن محاولات تكريس « جماعة شعر » كحركة رائدة أولى واستند في تأكيد كلامه إلى تدليس رسالة الدكتوراة لكمال خير بك ، في تجاوزها ومرورها العابر على رواد حركة الحداثة الشعرية بمصر والعراق وتكريسها فقط لريادة « جماعة شعر » .

بدت قذيفة حجازي مغالطة قاسية حيث تقتصر رسالة كمال خير بك - كما يكتب صاحبها في صفحاتها الأولى على دراسة حركة « مجلة شعر » فقط كنموذج !

بين عنف حجازي الرائد ، وعنف شعراء التسعينيات ، واجه أدونيس أيضاً انفضاض شعراء السبعينيات جميعاً عنه ، هم الذين التفوا حوله لسنوات طويلة كأبرز ظاهرة شعرية عربية حديثة - في رأيهم - تشيعوا له ، وانتسبوا إليه حتى سمو يوماً « الأدونيسيين » . . غابوا جميعاً خلال تلك الزيارة . . غابوا عن اللقاء معه والحفاوة به ، وغابوا عن الندوات الثلاث التي أقيمت لأدونيس بالمعرض ، باستثناء الشاعرين عبد المنعم رمضان ومحمد سليمان اللذين اكتفيا بحضوره الندوة الأخيرة بالمقهى الثقافي ، وتغيبا عن حضور الندوتين السابقتين !

كان الانحسار واضحاً وملموساً ، وكان المناخ عدائياً داخل القاهرة الكبيرة . . تباعد المثقفون ، وتلاشى الاهتمام والحفاوة . . فقط أطلت المصالح واستقبلته المؤسسات والهيئات الرسمية . .

فى الصباح الثالث كان صوته محشرجاً من فعل الأتربة والغبار ، وربما أيضاً الارتباك والضيق . . اعتذر أدونيس عن إجراء حوار لأخبار الأدب ، لعدم قدرة صوته على الكلام ، لكنه فاجأنى بالسؤال : كيف هى صورتى فى القاهرة ؟

قلت : ملتبسة !

قال : كيف ؟

قلت : ثمة قضايا خلافية عديدة ، أظنها غير واضحة لدى الجمهور المصرى ، أولها موقفك من التطبيع الثقافى مع إسرائيل - تلك القضية الجوهرية فى الثقافة المصرية . . أيضاً عداؤك للقومية والعروبة .

قال : وهل هذه تهمة ؟

قلت : ربما . . إنك تجاهبه شعباً بأكمله لا يعرف كيف يمكن لإنسان أن يكون غير قومى (لم أشأ تذكره بوصفه للوحدة المصرية السورية «بعضر الحذاء الذهبى» أو وصفه للمصريين بغربان أفريقيا الجائعة . .) أيضاً تحولاتك السياسية من « القوميين السوريين » إلى الماركسية إلى الناصرية إلى . .

قاطعنى هذه المرة بحدة : حددى الوقائع حتى لا أتهم بالشائعات ، فليس لدى سوى تجربة حزبية

واحدة فى بداياتى ، وغادرتها . . غير ذلك هى بضعة آراء أو مواقف
ماركسية كانت أو ناصرية . . صمت قليلاً ثم أضاف : هل تظنين
الخروج جريمة ؟

قلت : بالتأكيد لا . . هو قيمة إيجابية . . لكن حين يكون الخروج
علينا نحن ، فمن حقنا فقط أن نجابه خروجك . .

لم يغضب أدونيس من تلك الأسئلة الاستفزازية ، بل وعد بإرسال
إجاباته صريحة وواضحة عبر الفاكس فور عودته إلى ألمانيا ، بينما رحت
أؤكد أن الاختلاف معه أو حوله ، هو قيمة ، هو أول من يدركها
ويطالب بها . . رحت أكرر احترامى له كشاعر كبير ، كررتها كثيراً
وكانى أعتذر عن عدم إفصاحى عن محبته .

فى ظهيرة اليوم نفسه كان ثمة شىء دافئ وعاطفى داخل المقهى
الثقافى . . هذه المرة يواجه أدونيس الجمهور المصرى محاطاً بأصدقائه
الحميمين إدوارد الخراط ، عدلى رزق الله ، عبد المنعم رمضان وسعيد
الكفراوى الذى قام بتقديم أدونيس إلى الجمهور . . كان «سعيد» سخياً
فى محبته ، صادقاً فى انفعاله ، لكنه بالغ . . بالغ حتى جرح الانفعال
« إذا سألت أى طفل فى أى قرية مصرية لمن تقرأ ؟ سيجيبك فى كبرياء :
أقرأ أدونيس » .

لم يسيطر أحد على الانفعال . . فكان البكاء العادل . . البكاء المحتج
على خطأ الانفعال وخطأ الحوار ولغة التخاطب ، ولعل بكاء أدونيس
الاستثنائى ، والذى لم يعرفه طوال حياته - كما ذكر - هو تقدير للقاهرة
التي رآها هى المدينة العربية الوحيدة التى تجاوزت التكوين القبلى

والطائفي والريفي . . . والتي نراها نحن قادرة دائماً على تصويب الحوار ،
والتي لا يحق لها إلا أن تكون عادلة .

تحدث أدونيس بصفاء ذهني ورؤى مبدعة . . لكنه ضاعف من قضايا
الاخلاف والاختلاف . . تحدث عن مفهومه الجمالي للقصيدة البعيدة تماماً
عن كل شروط اجتماعية أو تاريخية . . تحدث عن مفهومه لشعر
«المقاومة» من حيث هو مقاومة للذوق البليد ، وليس مقاومة للقمع
والسلطة . . رفض أدونيس قصيدة « البندقية » مدافعاً عن قصيدة
«الوردة» ؛ فهو لا يؤمن بأن الشعر يخدم قضية .

نفى أدونيس القصيدة السياسية والقصيدة الأيديولوجية وقصائد
القضايا الكبرى ، من حيث هي مفهوم وظيفي للشعر وموقف تقليدي ،
حذف فيه الشاعر الممدوح القديم ليضع القضية أو الأيديولوجيا مكانه .

تحدث أدونيس عن مؤتمر غرناطة ، الذي أقامته اليونسكو حول ثقافة
السلام (٨ - ١٠ ديسمبر ١٩٩٣) ، وشارك فيه مفكرون إسرائيليون
وزعيم الخارجية الإسرائيلي شيمون بيريز وشارك فيه أيضاً عشرون كاتباً
عربياً . . تحدث أدونيس عن كلمته بالمؤتمر ، عن الهوية الثقافية العربية
الإسلامية ، وعن انتماء إسرائيل جغرافياً إلى المنطقة العربية التي تقوم
ثقافتها على أساس التمازج والتنوع . . أكد أدونيس أنه مع السلام ضد
الحرب ، ولكنه نفى أنه طالب يوماً بالتطبيع مع إسرائيل . . فقد كان
دائماً ضد التطبيع الثقافي داخل الثقافة الواحدة . . فكيف له أن يطالب
بالتطبيع بين ثقافتين مختلفتين !

أسئلة عديدة وخلافية لكن الأهم دائماً - وذلك درس المقهى - هو
القدرة على تصويب الحوار . . كيف نصيغ السؤال بجدية تحترم المناقشة
وتحترم الآخر . . كيف نجابه المختلفين معنا وكيف نواجه كبارنا ؟

* * *

أدونيس بالفاكس :

لابد من إعلان الحرب على^(*)

حين فاجأني أدونيس بالسؤال عن صورته في القاهرة . . تداخلت الأسئلة المثارة حوله منذ سنوات وتشابكت الصور الملتبسة ، وكانت محاولاتي للاقترب تأخذ شكل الاستفزاز وتنطق بكل ما هو مسكوت عنه .

لم يغضب أدونيس . . وبرغم اعتذاره عن إجراء حوار « لأخبار الأدب » بسبب إرهاقه الصحي ، اقترح على كتابة تلك الأسئلة ليقوم بالرد عليها عبر الفاكس .

أكرر كان الأمر اقتراحاً من أدونيس . . فحوار الفاكس في رأيي - ليس حواراً أو هو حوار من طرف واحد ، غير مسموح فيه بالمناقشة أو التدخل أو التوضيح أو التعليق . . إنه الحوار السلطوي القامع .

اقترح أدونيس الإجابة بالفاكس ، ثم قام بالاتصال التليفوني بالجريدة للاطمئنان على وصول إجاباته وتأمين نشرها اللائق دون اختصار ودون تدخل . . ثم أرفق كل هذا بتعقيب متوتر :

(اصحى لى أخيراً - يا سيده عبلة - أن أقول لك .. عندما قرأت أسلتك ، شعرت كأنني أمام رقيب في الشرطة « لكنه قام بشطب العبارة الأخيرة وكتابة عبارة أخرى » شعرت كأنني أمام لائحة اتهام .. وسؤالي

(*) جريدة أخبار الأدب - القاهرة - ٢١ / ٢ / ١٩٩٩ م .

السيط الذى أوجهه بدورى لك .. لماذا يتكلم معظم كتابنا بلغة «المتهم»
بدلاً من أن يتكلموا بلغة «القارئ» ؟ !

ولا تعليق من جانبى على هذا المستوى من التعقيب !

ولأن صياغة الأسئلة تمت بشكل تلقائى ، دون ترتيب أو إعداد مسبق
وبسرعة فرضت الاختصار والإشارة ، فلم أكن بحاجة إلى درس
التصويب الأدونيسى « الشكلى » فعندما أتكلم عن قصيدة « ملوك
الطوائف » فمن البديهى أنى أتكلم عن قصيدة « مقدمة لتاريخ ملوك
الطوائف » دون حاجة إلى عناء أدونيس فى التدقيق .

لم يمنحنا الفاكس فرصة الحوار أو المناقشة الحقيقية ، ولم يمنحنا المناخ
العصبى ، الذى استقبل فيه أدونيس عدد « أخبار الأدب » السابق حول
زيارته الأخيرة للقاهرة ، والذي وصفه بالهجوم العاصف - فرصة كتابة
الحوار أو أية محاولة لإيضاح الصورة .

فقط ثمة إجابات لم تمتلك الصفاء الكافى حول بعض الأسئلة المثارة .
ليظل الالتباس قائماً
والاختلاف عميقاً

- حركة شعر .. لماذا تأخرت ريادتها الشعرية عن العراق ومصر .. والبعض
يرى أن الريادة الشامية مثل الثقافة اللبنانية هى ثقافة شكلية خارج
التاريخ ، غير مسموح لها بتغيير الواقع ؟

لا تعينى « الريادة » فى ذاتها ، إطلاقاً . يعينى « محمول » هذه
الريادة ، وكيفية رؤيتها . فى التاريخ « ريادات فنية » ليست لها أية قيمة
فنية ، وكانت القيمة كلها فى ما جاء بعدها . من الأول ؟ هذا سؤال

لا تمكن الإجابة عنه ؛ خصوصاً أن الإبداع الكتابي استئناف وليس «بداية» بالمعنى الشائع فى أوساطنا الأدبية .

كل عمل عظيم هو فى جوهره ، استئناف . . جلعاشم ، الأوديسة ، التحولات (لأوفيد) والكوميديا الإلهية ، ألف ليلة وليلة ، هاملت ، دون كيشوت . . إلخ .

« الأول » إبداعياً سلسلة بلا نهاية من « الأوائل » . . أما فى ما يتعلق باحكم على الثقافة اللبنانية بأنها « ثقافة شكلية » ، فأكتفى بالقول إننى لن « أتهم » الذين يطلقونه بأنهم أعداء للبنان ! وبأن لهم الحق والحرية فى قول آرائهم مهما كانت !

- لست مسألة إقليمية ولكن ذاتكك الشعرية تدفعك للدفاع أكثر عن الشعراء الشوام « أنسى الحاج / الماغوط » بينما قد تنظر بسلبية للشعراء القوميين وللخطاب السياسى فى الشعر ؟

لا أظن أننى دافعت عن الشعراء الشوام ، كما تعبرين ، أكثر مما دافعت نوعياً لا كمياً عن شعراء مصر .

فلقد نشرت لشعراء مصر البارزين كلهم فى مجلة « مواقف » وليتك تقرأين ذلك ، أو تسألينهم .

ولم يكتب شاعر من جيلى عن صلاح عبد الصبور ، كما كتبت . هل قرأت ما كتبت عنه ؟

وأكرر هنا أننى لا أقيم تماهياً بين الشعر والبلد ، أو الأمة ، فإذا قلت الآن ليس هناك شعر عظيم فى العراق ، أو سوريا ، أو لبنان فلا يعنى

ذلك أنتى أكره هذه البلدان ، أو أنتى أنفيها ، كما أنفى الشعر العظيم عنها على افتراض ذلك .

وما أقوله عن هذه البلدان ينطبق على مصر وعلى البلدان العربية كلها . ليست « الأمة » هى التى تكتب القصيدة ، وإنما يكتبها فرد بعينه ، ونقدها إيجاباً أو سلباً ينحصر فيها وفى صاحبها . ولا يجوز أن نحبه أو نعلمه على « الأمة » .

أما عن الخطاب السياسى المباشر فى الشعر . فقد كنت دائماً ولازال ، ضده سواء كان مصرياً ، بشكل خاص أو عربياً بشكل عام . أقول ضده شعرياً لا ضد قائله . . فأنا أكن احتراماً كبيراً للشخص ، بوصفه شخصاً ، وهو احترام يشمل حتى من يطرحون أنفسهم بوصفهم أعداء لى ، فلم تصدر عنى فى حياتى كلها كلمة تسمى إلى الأشخاص ، مهما كانوا عتاة فى التهجم على . . فأنا أكن احتراماً كبيراً للشخص البشرى فى ذاته ولذاته . بوصفه إنساناً مخلوقاً على صورة الخالق - أيّاً كانت آراؤه واتجاهاته ، وأدافع عن شرفه وكرامته دفاعى عن نفسى بالذات .

- لماذا ترفض الأيديولوجية والقومية ، برغم أن تكوينك المعرفى مبنى على احترام الآخر ؟

أرفض الأيديولوجية لأنها حجاب على الواقع ، وحاجز يحول دون المعرفة الحية والشاملة . فهى كما أرى نوع من تجهيل آخر . . . ذلك أنها معرفة مسبقة سلفاً و يقينية سلفاً ، وتسفه غيرها سلفاً . عدا أنها تعليقية تبشيرية ، وتحول الفن إلى مجرد أداة لخدمة السياسة .

أما عن القومية ، فأين رأيت في كتاباتي أنني « أرفض القومية » كما تقولين ؟

أرفض الشعر الرديء الذى يتكى عليها ، ويستغل العواطف المرتبطة بها لهدف أو آخر ، وأقول تبعاً لذلك لا يصح تقويم الشعر ، فنيّاً بـ « قوميته » . . يجب أن يقوم الشعر بفنيته ، لا باتجاهه أو بموضوعاته ، فالقضية العظيمة لا تجعل من شعر رديء يتكلم باسمها شعراً عظيماً . لا يخدم القضايا العظيمة إلا شعر عظيم .

ثم إن من يرفض قوميته يرفض نفسه : هل ترين أنني أرفض نفسي ؟

- قلت إن الهوية هي المستقبل وإن حدها الأدنى « الإقليم » . تحتاج هويتك إلى وضوح أكثر وإيضاح خاصة في ضوء موقفك السلبي من (القومية) (والعروبة) وموقفك السلبي أحياناً من التراث العربى والإسلامى ، وأيضاً تعدد آرائك السياسية من القوميين السوريين إلى الماركسية إلى الناصرية ؟

ليتك تحددين لى « سلبية » مواقفى هذه ، وأين تتجلى في كتاباتي وكيف ؟ دون ذلك ، تظل هذه الأقوال مجرد تأويلات ، أقل ما يقال فيها إنها غير صحيحة ، وأعطيك أمثلة على ذلك ؛ أى على تهافت مثل هذه التأويل فيما يتعلق بالتراث أولاً .

كيف يمكن لمن كتب « مقدمة للشعر العربى » مع « ديوان الشعر العربى » الذى صدر فى ثلاثة أجزاء » ، وهى الدراسة النقدية العربية الأولى ، (وأقول ذلك دون تواضع كاذب) التى نظرت إلى الشعر العربى القديم بروية حديثة ، واضعة إياه فى منظور الشعر الكونى أن يكون موقفه سلبياً من التراث ؟

ثم إننى أصدرت بعد هذا الكتاب كتباً أخرى فى دراسة تراثنا ،
تكشف عن جوانبه الجمالية والفكرية والإنسانية المضيئة ، مثل : « كلام
البدايات » ، و « الشعرية العربية » و « النص القرآنى وآفاق الكتابة » ،
و « الصوفية والسورالية » .

كيف يمكن لمن كتب هذه الدراسات فى تمجيد الشعر العربى والفكر
العربى أن يكون موقفه من التراث سلبياً ؟ اللهم إلا إذا كان يقصد
بالسلبية موقفى من مظاهر العنف والطغيان فى تاريخنا السياسى ؛ فقد
انتقدت وأنتقد هذه المظاهر ، منتقداً فى ذلك بنى السلطة التى تمارسها ،
فهل على أن أمجد هذه المظاهر وأدافع عنها ؛ لكى يقال عني إن موقفى
من التراث إيجابى ؟

أما فيما يتعلق بأرائى السياسية أو العامة ، ثانياً ، فإن من « التهم التى
وجهت إلى الناصرية والماركسية والخمينية فى آن واحد فكيف يمكن مثلاً
أن أكون ناصرياً وأصف الوحدة المصرية السورية » وهى (وحدة ناصرية)
بأنها (عصر الحذاء الذهبى) أو أصف المصريين بأنهم (غربان أفريقيا
الجامعة) ؟

وكيف أكون ماركسياً وأكون فى الوقت ذاته مناصراً للأنظمة الدينية ؟
إن موقف شاعر أو كاتب أو مفكر من قضايا عصره ، ومن الأفكار
والاتجاهات بعامة لا يجوز أن يؤخذ من جملة تنتزع من سياقها ، وتؤول
اعتباطياً ، وإنما يجب أن يؤخذ من مجمل كتاباته فى نواتها الأساسية ،
وفى سياقها العميق الأخير . دون ذلك يمكن أن تنتزع من كتابات أى
كاتب جملة أو أكثر ، ويتهم على أساسها بأنه شيوعى بينما هو قومى ،
أو قومى بينما هو شيوعى ، أو شرقى بينما هو غربى أو العكس ،

أو روحى بينما هو مادى ، أو العكس . . لا يعود هناك أى ضابط
أو مقياس معرفى أو أخلاقى فى قراءة النصوص وتأويلها ، وإنما يصبح
التأويل كيفياً تملّيه العداوات أو الصداقات ، أو تملّيه الصراعات
والمصالح .

هكذا ترين كيف أن التأويلات التى ليس لها ضابط معرفى وأخلاقى ،
يمكن أن تشوه أشخاصاً ، أو تشوه كتباً وأفكاراً ، وكيف يمكن على
العكس فى حالات أخرى وهى كثيرة عندنا ، أن تعلّى من شأن أشخاص
غير جديرين ، أو أن تضىفى قيماً على كتب لا قيمة لها .

أما الهوية فصحيح أننى أقول إن الانتماء الإقليمى أو بالولادة هو
حدها الأولى .

لأقل أن للهوية كما أرى مستويين :

يتصل الأول بنشأة الإنسان وانتمائه .

ويتصل الثانى بعمله وصيرورته .

يكشف الأول عما هو طبيعى ومعطى ، دون أى خيار أو تدخل أو
إرادة من الإنسان .

ويكشف الثانى عما هو مكتسب ، عما هو خلق ، وإذاً عما هو
إشكالى ، يقوم على اختيار الإنسان وتدخله وإرادته .

يبقى تحديد هوية الإنسان فى المستوى الأول ، أولاً يشير إلى
الالتصاق بالطبيعة وبالمعطى ، شأن بقية الكائنات الحية .

غير أن الإنسان يفصل عن الطبيعة خالقاً مسافة هى مسافة التاريخ ،
حين يحدد هويته فى ضوء المستوى الثانى . . . وفى هذا المستوى يخرج
الإنسان من أوليته لكى يفتح أفقاً ، ولكى يكون معنى ، وفى هذا ما يشير

إلى أن الحيوان لا تاريخ له ؛ لأنه يظل في « أوليته » ملتصقاً بالطبيعة غير قادر على الانفصال عنها بينما الكائن الإنساني يخلق بالضرورة . . بضرورة تميزه إنسانياً مسافة بينه وبين الطبيعة . ومن هنا يكون له تاريخ بدءاً من هذه المسافة ذاتها .

وعلى هذا لا تكمن حقيقة الهوية الإنسانية في مجرد النشأة والانتماء ، وإنما تكمن على العكس في الفكر والعمل والضرورة ؛ فالإنسان لا يرث هويته بقدر ما يخلقها أو لتقل بعبارة ثانية : لا يشكل الجانب الوراثي في الهوية إلا مستواها « الطبيعي » . . فالهوية الإنسانية إبداع مستمر وضرورة متواصلة ، فالإنسان يخلق هويته فيما يخلق فكره وعمله .

– لماذا تقرأ دائماً (ملوك الطوائف) في الندوات ، برغم انتمائها للمعنى والرسالة التي تناقضه في مشروعك ؟

تقصدين قصيدة « مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف » ؟ لكن اسمحي لي أولاً أن أقول لك إنك لا تحضرين المناسبات كلها ، التي ألقى فيها شعراً لكي تصدرى هذا الحكم ، وأذكرك للمناسبة بأنني لم أقرأ هذه القصيدة منذ عشر سنوات على الأقل .

واسمحي لي ثانياً أن أقول لك أنني أستغرب قولك بأن مشروعى مناقض للمعنى والرسالة ؟ وأتساءل أين تجيء مثل هذه الأحكام ، وإلى أى شيء تستند ؟ وما تقولين إذاً في معظم قصائدي « الصقر » والقصائد الخمس في « كتاب القصائد الخمس وأبجدية ثانية » ؟ بل ماذا تقولين في معظم شعري ؟

طبعاً لا أقيم أى تماء على أى مستوى ، بين القومية و « النظام »
و « المؤسسة » أو أى تماء بين « الأيديولوجية » و « الشعب » أو « الحياة » أو
« الفكر » .

وإذا كنت ضد هذا النظام أو ذاك أو ضد هذه المؤسسة أو تلك - حزبية
كانت أو دينية - فهذا لا يعنى أننى ضد « القومية » . . وإذا كنت ضد هذه
الأيديولوجية أو تلك . . فهذا لا يعنى أننى ضد الشعب أو الوطن .

هذه بدهيات تتجلى فى أبسط قراءة لشعري ، ولكن يمكن أن أناقض
معنى ما أو « رسالة » ما ، إنما لا أناقض المعنى بإطلاق أو الرسالة بإطلاق .

- تحدثت عن قيمة الحداثة فى تأسيسها للكلاسيكية بالنظر إلى حداثتك
الشعرية .. هل ترى أنك أصبحت كلاسيكياً كما يرى الكثيرون ؟

طموح كل حداثة شعرية حقيقية هى أن تصبح كلاسيكية : أى أن
تندرج شعريتها فى الشعرية الكلاسيكية ، وتصبح جزءاً عضوياً من قيم
اللغة الشعرية .

ولئن أصبحت حقاً كلاسيكياً فذلك أمر يسعدنى كثيراً . . إذ بهذا
أكون قد دخلت فى النسيج الجمالى الشعرى للغة العربية .

الشعراء المحدثون فى تاريخنا (أبو نواس ، أبو تمام . . إلخ) نبذوا ،
بادئ الأمر باسم القيم الكلاسيكية ثم أصبحوا بقوة إبداعهم وشعريتهم
كلاسيكين .

وهذا ما يصح قوله على الشعراء فى اللغات الأخرى رامبو الحديث ،
ولو تريامون الحديث ، ومالارميه الحديث وبودليير الحديث وريفيردى

الحديث تمثيلاً لا حصراً لا أسمى غير الشعراء الفرنسيين . . . هؤلاء أصبحوا جميعاً كلاسيكيين - بقوة إبداعهم وبشعريتهم .

شكراً للذين يسموننى كلاسيكياً ، فأنا شخصياً أرى أن الجانب التجريبي في شعري لا يزال يحول دون أن أصبح كلاسيكياً .

- وهل ترى أن الكلاسيكية هزيمة لمشروعك المتجدد دائماً أو انحصاراً له ؟

كيف تكون الكلاسيكية « هزيمة » ، وهى نهاية كل حادثة حقيقية ؟ لا حادثة على الإطلاق لا فى لغتنا العربية ، وإنما فى جميع اللغات إلا إذا كان يجرى فيها بشكل أو آخر ، نسغ كلاسيكى كل حادثة لا يجرى فيها نسغ كلاسيكى ليست إلا ورقاً يابساً وغباراً من الكلام .

ثم إن علينا قبل هذا كلة ، أن نجلو الالتباس الهائل فى حداثتنا الشعرية العربية ، وهو التباس يكاد أن يحولها إلى أضحوكة ، يتمثل هذا الالتباس فى حصر هذه الحادثة فى تغيير مظهر القصيدة فى مجرد البناء النفعلى ، أو فى مجرد الخروج على هذا البناء .

والأساس هو ما يهمل كلياً : الأساس هو : ما يقول هذا البناء أو هذا « الخروج » وكيف يقوله ؟

بعبارة ثانية كل حادثة لا تصدر عن رؤية جديدة للحياة والإنسان والعالم عبر رؤية جديدة لجمالية اللغة ، التى نكتب بها ولتاريخها الجمالى والحضارى لا تكون ، لا يمكن أن تكون ذات قيمة ، وسوف تلفظها اللغة ذاتها التى تقولها .

- بماذا تفسر الحضور الطاغى لأدونيس طوال الثمانينيات فى مصر ثم انحساره خلال التسعينيات (انحسار الظاهرة الأدونيسية) .. هل يشعر ذلك بالمرارة ؟

على العكس ، أجد فى ذلك ظاهرة من الحيوية .

لا بد من إعلان الحرب على خصوصاً من قبل الشباب والأجيال الأدبية الطالعة .. لكن عليهم أولاً لكى ينجحوا فى هذه الحرب أن يعرفوا « عدوهم » معرفة حقيقية ، عبر نصوصه ذاتها ، لا عبر الأقاويل والتأويل الشائعة ، والتي لا تليق لا بالشعر أو بالفكر .. تصورى كيف كان سيبدو شعرنا ، لو لم يحارب أبو نواس وأبو تمام الشعر الذى كتب قبلهما - محاربة فنية وفكرية ؟ ولو لم يحاربا بدورهما ولو لم يحارب المتنبى ؟ ولو لم يحارب المعرى ؟

كان سيبدو سطحاً رتيباً كمثل الصحراء .. غير أنه أصبح بفضل هذه « الحروب » جغرافية هائلة من الجبال والغابات والأودية والسهول والفضاءات والكواكب .

كلا .. لا أشعر بالمرارة وعلى العكس أشعر بالحلاوة : أشعر أننى لا أرحز إلا لأننى أرحز . الشاعر الذى لا يخلق مشكلة الذى « يرضى » الجميع ، لا يمكن أن يكون الشعر راضياً عنه .

* * *

تأويل الغبطة(*)

فى أسية شعرية ناجحة بدار الأوبرا المصرية ، شارك عازف العود العراقي نصير شمة ، أدونيس فى صياغة الغبطة ، تلك التى كان بالإمكان الإمساك بها بعد أن غمرت الجميع .
كان المساء جميلاً . .

يكفى أن يلتقى الشاعر بجمهور يتذوق قصيدته ويتجاوب معها . .
يكفى أن تكتمل العلاقة ، دون حاجة لتفسير العذوبة وتأويل الغبطة . .
لكن أدونيس المفتون بالقراءة ، يحرص على التأويل وملاحقة الدلالات والأحكام . . يحرص على الإمساك باللحظة لتثبيت الحكم وإثباته . . فيقدم بزائوته الأسبوعية بجريدة الحياة تحت عنوان «القاهرة التى عمدتى» قراءته لجمهور الأسية ، واكتشافه المغاير .

على حين يقدم أدونيس نفسه (كوعد) ، وقصيدته (كاحتمال) وشاعريته (كسؤال) . . يتكلم عن الجمهور بكثير من الثقة والاطمئنان والمزيد من الأحكام الإطلاقيه . . حيث لغة الجمهور (إنجاز) ، (ويقين) ، و (جواب) و (اكتمال) . .

من أين له بكل هذه الثقة وذلك اليقين ؟ . .

(*) جريدة أخبار الأدب - القاهرة - ١٦ / ٤ / ٢٠٠٠ م .

من أين له بذلك المعيار اللغوى ليطمئن إلى أحكامه ؟ . . من هو ذلك الجمهور (الكلى) ، (المتجانس) ، والذي يمكن الحديث عن لغته الكاملة والمكتملة فى عصر الاستنساخ الآلى وهيمنة الصورة ؟

خضع أدونيس فى تحليله لظاهرة الجمهور الشعرى لفرضية ذهنية أقامها وسكن إليها . . فالجمهور (المصرى والعربى عمومًا خارج أمسيات أدونيس الشعرية) هو فى عموميه جمهور سياسى أيديولوجى ، لا يتصل بالفكر بوصفه سؤالاً ، ولا يتصل بالإنسان بوصفه وجوداً أو مصيراً ، ولا بالكون بوصفه كشفًا ومعرفة . . جمهور قضاياه سياسية وهواجسه أيديولوجية ، وهو بالضرورة مستلب الوعى مغلوب على أمره ، محاصر داخل مساحة ضيقة ، فرضتها وقامت بتعميمها السياسات والأيديولوجيات ؛ بحثًا عن امتلاك الجمهور وتوظيفه لحسابها الخاص . . تلك الصورة العامة هى الصورة السائدة للجمهور العربى كما فرضتها السلطات والسياسات ، وكما سلم بوجودها لسنوات طويلة أدونيس نفسه) . .

ومع الأمسية الشعرية فى دار الأوبرا بالقاهرة ، وربما قبلها مرات نادرة فى أمسيات محدودة ، اكتشف أدونيس خطأ الصورة وتبسيطها . .

اكتشف ويكتشف دائمًا فى أمسياته تحديدًا ، أن ثمة جمهوراً خارج السياسة وبمعزل عن الأيديولوجيا ، جمهور خارج التطريب الإنشادى التقليدى - برأيه - جمهوراً صافياً خالصاً للشعر وللقصيدة . . هنا يقع أدونيس فى خطأ المشهد بأكمله ، حين يبدأ من موقف متعال يفصل ويتعف ، بفاضل ويمائز . . فالجمهور المنفصل عن القصيدة الأدونيسية

والمنفض عنها هو (جمهور سياسى أيديولوجى) يحركه الشعار ويطربه
النشيد . . والجمهور المتصل بالقصيدة الأدونيسية المتجاوب معها هو
(جمهور شعرى) ؛ أى إن الجمهور (غائب) شعرياً فى الحالة الأولى ،
(حاضراً) بالضرورة فى الحالة الثانية . .

وهو تعال يضع أدونيس كمرجعية للجمهور ، دون أن يكون الجمهور
مرجعية له . . وهى أيضاً قراءة تحتقر الجمهور ، حين تمتلك السياسات
والأيديولوجيات إدراجه دائماً ضمن برامجها وتحركاتها واستخداماتها ،
بينما هو الكتلة الصماء النظرية الخاضعة المغلوبة . . !

فى ظل غياب الجمهور عن القصيدة الأدونيسية ، يقبل أدونيس
بسهولة تفسيرات السلطة وسطوتها فى صناعة الصورة ، ومحاولة
امتلاك الجمهور وتوظيفه . . وفى قبوله هذا اعتراف ، بل وإسهام مؤكد
فى تكريس تلك الصورة (الزائفة) . . فليس ثمة مجابهة لفساد الصورة
وليس ثمة حديث أو ممارسة لصواب العلاقة مع (الجمهور) . . إننا أمام
علاقة فوقية وجمهور متلقى دائماً ، دون قدرة حقيقية على تأسيس
(حوار) فاعل هو جوهر العلاقة وصوابها .

خضع أدونيس دائماً لثبات الصورة (المفروضة والمفترضة) واختار
لتجربته المركزية فى الشعر العربى منهجية القطيعة والانفصال ، محتفظاً
بفاعليته داخل دوائر النخبة ومناهضاً فكرة (الجمهور) لحساب فكرة
(القارئ) .

لكن أدونيس يختلف ويعاود القراءة فمع حضور الجمهور فى
الأمسيات الأدونيسية ، يراجع أدونيس مفهومه للجمهور بمكر شديد ،

فيتحول الجمهور (الذى كان سياسياً) إلى جمهور كاشف ، متجاوب ، محترف بالشعر الخالص . . وهو تحول لا أظنه يستند إلى تحولات حقيقية لدى الجمهور ، بقدر ما يستند إلى استخدام أدونيس لآليات السلطة نفسها فى محاولة امتلاك الجمهور واستخدامه وتوظيفه لصالحه ولحسابه الشخصى . .

ومع محاولات أدونيس لرصد تحولات الجمهور ، استناداً إلى خبرة الأمسية الشعرية ، التى أقامها بنجاح فى القاهرة (وهى خبرة مؤقتة وعاطفية) . . يعود ليؤكد بصورة إطلاقيه لغة الجمهور اليقينية . . تلك الإطلاقيه التى لم تعد تحملها القصيدة ، مثلما لم يعد يحملها الواقع أيضاً . . كما أن فكرة (الجمهور) التى عاد أدونيس ليلح عليها مرة أخرى ، هى فكرة تتحدى ترائه النظرى وحدائته الشعرية القائمة على معاداة الجمهور (ابن التراث الشفهى) وتأسيس علاقتها مع (القارئ) . .

هنا يمكننا السؤال . .

ترى لو قرأ أدونيس (بالأمسية) قصائده الأخرى ، والمؤسسة جمالياً على فكرة الحوار مع (القارئ) لا (الجمهور) . . هل بالإمكان الحديث عن حضور الجمهور ؟

وإذا انفض الجمهور عن الأمسية ، هل كان يمكن لأدونيس رصد (شعرية) الجمهور فى مقابل (تسييه) . . ؟

قدم أدونيس ٣ قصائد فى أمسية دار الأوبرا . . هى قصائد أيديولوجية تستند إلى مواقف سياسية . . بل إن قصيدة (كافور) والتى يستعيد

خلالها عذوبته الشعرية الأولى هي تحديداً تشكل موقفاً ناصعاً لا يمكن قراءته بعيداً عن السياسة وبمعزل عن الأيديولوجية . .

هل يمكننا الادعاء بأن جمهور الأمسية تجاوب مع تلك القصائد؛ لأنها تتماشى مع هواجسه السياسية والأيديولوجية (سلباً أو إيجاباً) ؟ . .
وهل يمكننا القول أن قصيدة أدونيس نفسها هي أول من يناهض صورة الذهنية التي يحرص على الإقامة فيها . . فليس ثمة قصيدة تمتلك ذلك الفصل الحاد والوهي بين الجمالي والسياسي . . ليس ثمة قصيدة خارج الأيديولوجيا . . ليس ثمة قصيدة تمتلك ذلك الاستقلال الذاتي بعيداً عن كل شروط الواقع ومفرداته ، فلا توجد قصيدة تؤكد بهذا المعنى فراغها . . حتى قصيدة أدونيس ، هي قصيدة أيديولوجية وسياسية خاضعة لنمط الإنتاج الشعري والمعرفي القائم . . وهي أيضاً جزء من بنيان الجمهور الشعري الموروث . . أما تحولات الجمهور وإمكانية تغييره فهو موقف ثقافي ، بحاجة إلى شروط اجتماعية وسياسية وجمالية عميقة لا بد من توافرها ، ليقوض حقيقة وجود جمالي قائم في الوقت نفسه ، الذي يؤسس فيه وجوداً آخر مناقضاً ومختلفاً .

